القطيعة وقابلية التكذيب

(مقاربة في ابستيمولجيا ' باشلار ' وَ ' بوبر ')

د. خيرالدين دعيش
جامعة سطيف – 2 –

ملخص :

يتّضح الطرح الإبستيمولوجي – أساسا – بين ما جاء به كارل بوبر من مفهوم " مبدأ قابلية التكذيب" وبين ما جاء به " غاستون باشلار " حول مفهوم " القطيعة الإبستيمولوجية " من خلال محاولة إجابتهما على التساؤل : ما هي الطرق التي تمكننا من تجسيد التقدّم العلمي ؟ فكلاهما يرى أن وضع أسس للتقدم العلمي يشكل الهدف الأساس في فلسفتيهما بشكل خاص ، وفي الابستيمولجيا عموما ، ولا يكون هذا التقدم حسبهما إلا من خلال ثورية علمية تتجسد من خلال القطيعة عند باشلار وقابلية التكذيب عند بوبر .

تسعى هذه الورقة البحثية إلى تسليط الضوء على المفهومين (القطيعة وقابلية التكذيب) ، وكذا محاولة وضع مقاربة معرفية بينهما .

Abstract :

The epistemological exposition appears mainly between KARL POPPER's falsifiability principle , and GASTON BACHELARD's Epistemological Break concept while they were answering to the question : in which way can the Epistemology shape the scientific progress ? Both conceive their philosophical an epistemological goal in establishing scientific basis of the scientific progress . This last can't be without a scientific revolution throught the Break of bachelard or the falsifiability of popper .

This research paper aims to highlight the concepts (Break and Falsifiability) and also to found an approach between them .

تقديم :

ظهرت النسبية ؛ لتتجاوز البعد الذي وضعت فيه هذه النظرية ، بدءًا من البعد الفيزيائي والذي يعتبر تخصّص تموطن هذا المفهوم ، وصولا إلى اعتبارها نظرية شمولية استطاعت وضع محاكاة للواقع – بمجمل ظواهره – في العقل المدرك ، ولقد سمح هذا التبلور في مفهومها ؛ بإمكانية تبنيها في تخصصات علمية ومعرفية أخرى ، وكذا تبنيها في التخصص الذي يعنى بطبيعة هذه العلوم وبمجالاتها ونقصد هنا " الابستيمولوجيا " .

فالابستيمولوجيا تحاول فهم طبيعة العلوم بشكل خاص ؛ وتحديد المعالم الفكرية والنظرية للعلم بشكل عام ؛ بهدف وضع محاكاة أكثر تطابقا مع الظاهرة العلمية في الواقع [i(*)] ، وتتضح المحاولة الابستيمولوجية لوضع تطابق بين الواقع والمدرك في العلم من خلال مجموع خصائص تعتبر محددة لمعالمه ، من بينها خاصية التراكمية في العلم Cumulative in science .

يتوافق مفهوم " التراكمية " the Cumulative ؛ مع ما قاله نيوتن " إني لم أستطع أن أرى أبعد من الآخرين إلا عندما صعدت على أكتاف من سبقوني " فلطالما أكد مؤرخو العلم وفلاسفته اتّساق هذا المفهوم مع العلم النيوتني الكلاسيكي[ii] ، وكان هذا الاتّساق خلف ظهور النظرية التراكمية Cumulative Theory ، حيث تذهب هذه النظرية إلى أنّ التقدّم العلمي لا يكون إلا من خلال انطلاق الباحث من آخر نقطة توقف فيها من سبقه حول الموضوع المراد البحث فيه ، بمعنى أن المعرفة الجديدة لا تنبثق من نقطة بداية مطلقة ؛ وإنّما نقطة بداية هذه المعرفة الجديدة تعتبر كنقطة انتهاء بالنسبة لعملية بحث أخرى سبقتها ، فالمعرفة العلمية حسب هذه النظرية عملية متّصلة تكاملية ، ترتكز ارتكازا وثيقا على مفاهيم التعميم والاستقراء .

وفي الوقت الذي ترى فيه النظرية التراكمية أن المعرفة عملية متّصلة ، ظهرت نظريات أخرى انتقدت مفاهيم النظرية التراكمية في العلم – جزئيا كان أو كليا – تتجاوز مفهوم الاتّصال من خلال طرحها الذي يرى أنّ التطور العلمي يكون من خلال انفصال المعرفة الآنية عن المعرفة التي سبقتها ، وأنّ المعرفة الآنية تنطلق من نقطة بداية مطلقة مستقلة عمّا سبقتها من معارف ، فالمعرفة حسب هذه النظرية تأخذ الطابع الثوري اللاتراكمي ؛ يطلق على هذه النظرية اسم النظرية الانفصالية ، ويعتبر " غاستون باشلار" Gaston Bachelard من أهم رواد هذا الاتجاه حيث يرى المعرفة العلمية على أنّها نقلات مفاهيمية ذات بعد استقلالي ، في طرحه لمفهوم " القطيعة الابستيمولوجية Epistemological Break ، فالمعرفة العلمية حسبه تصل إلى مرحلة انغلاق ، مما يستلزم قفزة نوعية ذات أسس وركائز مختلفة عن سابقاتها ، لتتبلور المعرفة من جديد وهكذا حسبه يتطور العلم من خلال نقلات ثورية .

و بشكل أقل انفصالا ؛ تعتبر فلسفة كارل بوبرkarl popper من بين الاتجاهات التي دعت إلى الثورية على المناهج والمعايير الكلاسيكية للعلم ؛ حيث ناهضت فلسفة " بوبر" المعايير الكلاسيكية في تحديد أسس للمعرفة الموضوعية ، فهي ترى أن كلّ نظرية وافتراض لا يمكنه أن يكون معرفة علمية ما لم يقبل إمكانية الدحض أو التكذيب ، في إشارة منه إلى مفهوم نسبية المعارف ؛ فكلّ نتائجنا وإجابتنا لن تكون علمية حسب " بوبر" إلا إذا كانت منطلقا لتساؤلات قابلة للتكذيب هي بدورها ، وتسليما منّا بعدم قدرتها على إعطائنا معرفة مطلقة ، كان هذا هو المعيار البوبري ، الذي رأى وجوب كونه معيارا حاسما في تحديد المعرفة الموضوعية عن غيرها ومن تحديد المعرفة العلمية عن Pseudoscience شبه العلمية وكمعيار بديل عن المعايير الكلاسيكية كمعيار التجربة والمعيار الحسّي .

يتضح الطرح الإبستيمولوجي – أساسا – بين ما قدّمه كارل بوبر من مفهوم لـ " مبدأ قابلية التكذيب " وبين ما جاء به " غاستون باشلار " حول مفهوم " القطيعة الإبستيمولوجية " من خلال محاولة إجابتهما على التساؤل : ما هو مصير المعرفة الآنية ؟ وما هي الطرق التي تمكّننا من تجسيد التقدّم العلمي ؟

II– كارل بوبر : قابلية التكذيب كمعيار للمعرفة الموضوعية :

اعتبر "كارل بوبر " أنّ موضوع تحديد معيار لمعرفة موضوعية يجب أن يكون الموضوع الأساس في فلسفته العلمية ، حيث : " يعطي المعيار لاختبار إمكانية تحديد ما إذا كان الحكم صحيحا أو خاطئا " [iii] وإن كان هذا التعريف لا يشمل تعريف المعيار بشكله العام وإنّما هو تعريف موجه نحو " معيار التجربة " تحديدا ، ويعرّف المعيار أيضا على أنه : " علامة أو وسيلة للحكم على جملة أو فرض علمي أو قضية نظرية ، لتمييز الصادق من الكاذب . ومعيار الصدق هو الذي يتيح إصدار حكم من الأحكام .في المجال العلمي يكون معيار الصدق في التحقّق بوساطة التطبيق ، الذي يتضمن الملاحظة والقياس ، والتناول الرياضي للنتائج التي أمكن التوصل إليها "[iv] ، وينقسم التعريف الأخير للمعيار إلى شقّين :

- **الشقّ الأوّل منه** : علامة أو وسيلة للحكم على جملة أو فرض علمي أو قضية نظرية ، لتمييز الصادق من الكاذب ، وهو تعريف للمعيار بشكل كلّي شمولي .
- **الشقّ الثاني** : في المجال العلمي يكون معيار الصدق في التحقّق بوساطة التطبيق ، الذي يتضمّن الملاحظة والقياس ، والتناول الرياضي للنتائج التي أمكن التوصل إليها ، أمّا هذا الشق من التعريف فهو يدعم أيضا " معيار التجربة " ، ويعتبر مبدأ قابلية التكذيب عند بوبر معيارا قادرا على تحديد المعرفة الموضوعية من غيرها ، كذلك معيارا فاصلا بين المعرفة العلمية واللاعلمية ، حيث يمثّل الطرح البوبري لهذا المبدأ ثورة فكرية ، تعلن قصور المعايير السابقة عن تحديد المعرفة الموضوعية ، خصوصا المعيار التجريبي والمعيار الحسّي .

1– انتقاد 'بوبر' للمادية والمعياران التجريبي والحسّي :

يظهر جليّا انتقاد " بوبر" للمادية وأساليب التبرير لديها وقصور معيار التجربة والمعيار الحسّي ، في كتابه " النفس ودماغها " ؛ فقد تناول من خلاله بوبر عنصر " المادية تتجاوز ذاتها " ؛ فكان هذا المفهوم عنوان فصلٍ كامل من الكتاب ؛ حيث يرى بوبر من خلاله أنّ النظريات المادية ، خصوصا النظرية الفيزيائية ، " تفسّر المادة بواسطة افتراضات عن كيانات غير مادية " [v] ويقصد بهذا أنّ " الأشياء المادية – الأجسام / المادة – لها بنية ذرية ، ولكنّ الذرّات لها بنية بدورها ؛ وهي بنية يصعب أن نصفها بأنها " مادية " ويصعب بالتأكيد أن نصفها بأنّها جوهرية : هكذا يمكن القول ، من خلال برنامج تفسير بنية المادة ، بأنّ الفيزياء تحتّم عليها أن تتجاوز المادية " [vi] ، لذلك يوجّه بوبر انتقاده إلى المعايير التجريبية والحسّية معا – وإنْ كان ضمنيا– من خلال ما تناوله في فصله هذا ، فمعيار التجربة والمعيار الحسّي لم يعودا كافيين لإعطائنا تفسيرات موضوعية للمادة ؛ ولجوء الفيزياء إلى " افتراضات عن كيانات غير مادية – خصوصا مع ظهور الفيزياء الكمومية *Quantum* والنظريات والمفاهيم التي وظّفتها – لتفسير المادة يعدّ دليلا على قصور المعيارين ، هذا الكلام يتيح لنا المجال للحديث عن مبدأ آخر في الفيزياء قد يدعم الطرح القائم وهو مبدأ الريبة – عدم التأكد في الفيزياء – لهيازنبرغ Heisenberg ، وهو مفهوم وظّف في الفيزياء الكمومية [(*)vii] مفاده أنّ : " لا شيء يمكن أن يعرفه البشر بمعنى نهائي ، لأنّ كل ما يوجد إنّما يوجد بوصفه احتمالا " [viii] . فالمادية عجزت أن تعطي تفسيرات ذات ثبات نسبي من خلال التجربة والحسّ ، ولجأت إلى : كما أسماها " بوبر " بـ " افتراضات غير مادية " لتدعيم تفسيراتها ؛ مما جعل تفسيراتها احتمالية ريبية ، أخضعها لمبدأ عدم التأكّد .

2– قابلية التكذيب كمعيار بديل لمعيار التجربة :

يعرّف " بوبر " العبارة العلمية بأنّها : " العبارة التي يمكن إخضاعها باستمرار لمعيار الدحض Falsifiability Criterion ، وكان الوضعيون يعرفونها بأنّها العبارة التي يمكن التثبّت من صحّتها من المشاهدات التجريبية "[ix] ، وقد حاول بوبر توضيح ما يقصده بعبارته هاته وطرحه لمبدئه الجديد في أوّل كتاب له عنونه بـ منطق الكشف العلمي [x] ، " إذ يستعمل هذا الكتاب كثيرا وفي غالب الأحيان ، المخطط التالي : كلّ نقاش علمي يبدأ بالمشكلة التي يمنحها نوعا من الحلّ : وهذا الحلّ بدوره يكون موضوع نقاش نقدي لمحاولة استبعاد الخطأ ، والمراجعة النقدية تنشأ عنها مشكلات جديدة ، وهكذا ينمو و يتطوّر العلم في جدلية مفتوحة "[xi] ، والواقع أنّ المخطط السابق لـ " بوبر " له تأويلان ، كلاهما يدعم معيار قابلية التكذيب لديه ، حيث يقبع خلف هذين التأويلين بُعدٌ كرونولجي يكون فاعلا في تحديد مفهومية مخططه ذلك ، وهما :

- **الأوّل** : وهو عند الانتهاء من البحث : تبدأ كلّ معرفية علمية في الأساس بطرح لإشكالية بحث حول موضوع ما ، وصولا إلى وضع سؤال يحدّد طابع هذا الإشكال المعرفي ؛ حيث يكون الهدف من البحث السعي نحو وضع إجابة لهذا السؤال ، ومن ثمّ نمنح هذا الإشكال " نوعا من الحلّ " ، ونقصد هنا بنوع من الحلّ ، هو نتائج الدراسة النهائية ، التي بدورها تكون موضوعا للنقاش وللمراجعة النقدية ، تسليما منّا بنسبيتها وقابليتها للتكذيب ، وهكذا من خلالها تنشأ مشكلات جديدة ، تكون منطلقا نحو بحث جديد .
- **الثاني** : وهو في بداية البحث : فلو نظرنا إلى عبارة " نوع من الحلّ " على أن المقصود منها هي فروض الدراسة ، تكون تلك الحلول عبارة عن إجابات مؤقتة لتساؤلات الدراسة ، وهذه الفروض يجب أن تكون غير يقينية ، وإنّما عبارة عن احتمالات قابلة للتكذيب هي بدورها ، حيث يسعى الباحث لمحاولة استبعاد خطأ هذه الفرضيات . لذلك يعتبر هذا الطرح محور العلم الحديث فيما يخص الفرضيات والإشكالية القائمة بين " الفرض الصفري H0 " وَ " الفرض البديلH1 " ، فكما هو معروف إحصائيا أن إجابتنا عن الفرض البديل H1 ، لا يعد إلا تفنيدنا للفرض الصفري H0 ، وإثباتنا صحّة الفرض الصفري لم تكن من خلال تجارب ونتائج إحصائية بقدر ما كانت عملية تفنيد لعدم قبول الفرض الصفري ، لأنّ عملية الإثبات تخضع لكثير من الاحتمالات ، أمّا عملية التفنيد فهي واحدة بسيطة .

إنّ معيار قابلية التكذيب قد يشمل النتائج النهائية للدراسة والتي تكون بعد الاختبار ، وقد يعني قابلية الفروض البحثية للتكذيب وهذا هو الأقرب ، ويكون الحكم على عبارة بأنّها علمية فقط من خلال مدى قبولها للتكذيب " وليس بالاستناد إلى أنّها قائمة على عدد كبير جدا من الملاحظات ، أو على كونها آتية من الخبرة ، فضلا عن أصل النظرية ومن أين أتت ، لا ينبغي أن يعنينا كثيرا بل إطلاقا " [xii] .